الفصل الثالث

الأعشى

شاعر القيان والغناء فى العصر الجاهلى

رأينا فى الفصلين السابقين ، عند حديثنا عن أثر القيان فى الشاعر الجاهلى وفى شعره ، أنّ هذا الأثر بيّنٌ واضح ، وأنّه انتظم عدداً كبيراً من شعراء الجاهلية ، وأنّه اتخذ طرائق قِدَداً ، سرَب فيها ، ودخل منها على الشعر والشاعر . ومن هنا كان يجدر بى أن أعقد هذا الفصل عن شعراء القيان فى العصر الجاهلى ، أُلِمّ بهم شاعراً شاعراً ، ولكنى استنفدتُ أكثر هذا الحديث فى الفصلين السابقين ، ورتّبتُ القول هناك على وجوه الأثر ومظاهره ، ثم نثرتُ القول على كل شاعر بما يتّصل من تأثّره بهذا الوجه أو ذاك ، فاستحال علىّ بذلك أن أجمع هذا النِّثار لئلا يكون فيه تطويل مُعاد لا مسوّغ له . وإنّما قصرت هذا الفصل على الأعشى ، لأنّه أكبر شعراء القيان والغناء فى الجاهلية ، فاقتطعتُ حديثه من الفصول السابقة ، وادّخرتُه لهذا الفصل ، ليكون تطبيقًا مفصّلاً لما قدّمتُه من وجوه أثر القيان فى الشعر والشاعر الجاهلى .

وربّما كان يجدر بى أن أترجم للشاعر ترجمةً وافية ، فأتناول فى حديثى : موطنه ونسبه وقبيلته وتفصيلات حياته ، ولكنى ما لهذا قصدتُ ؛ وإن كان لابدّ منه فليكن حديثًا مجملاً مقتضبًا ، أطويه طيًّا سريعًا لأصل منه إلى أمرين هما لبّ هذا الفصل : أولهما — المؤثرات التى وجهت حياته وطبعته بطابعها ، وثانيهما — ما نتج عن هذه المؤثّرات من آثار فى شعره ، وعلاقة القيان والغناء بكل ذلك .

* * *

نسبه وقبيلته وموطنه :

هو ميمون بن قيس بن جَنْدَل بن شَرَاحيل بن عوف بن سعد بن ضُبَيْعة ابن قيس بن ثعلبة ، من بكر بن وائل[١] .

وكنيته : أبو بَصِير ، ولقبه : الأعشى .

وعشيرته : بنو قيس بن ثعلبة ، بطن من بطون بكر ، عريقة فى الشعر ، فهم يَعدّون منها وحدَها ثلاثين شاعراً جاهليًّا . ورُوى أن حسَّانًا سئل : من أشعر الناس ؟ فقال : أشاعر بعينه أم قبيلة ؟ قالوا : بل قبيلة . قال : الزُّرْق من بنى قيس بن ثعلبة .

وكان موطن أسرته فى اليمامة ، وكانت تعرف قديمًا بجَوّ[٢] . وكان الشاعر نفسه يسكن فى قرية من قراها تسمى : مَنْفُوحة ، ذكرها مراراً فى شعره .

وكان أبوه : قيس بن جندل — يعرف « بقتيل الجوع » لقصة ذكروها عنه[٣] .

ورُوى أنَّه تزوج امرأة فلم يرض عشرتها ، فطلَّقها ، أو أنَّه أُجبر على طلاقها ، فقال فى ذلك قصيدته :

يا جارتى بِينى فإنَّكِ طالقَهْ كذاكِ أمورُ النَّاس غادٍ وطارقهْ

وخاله هو : المسيَّب بن عَلَس ، وكان الأعشى راويته وتلميذه .

وكان الأعشى جاهليًّا قديمًا ، أدرك الإسلام فى آخر عمره ، ورحل إلى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ليسلم ، فردّته قريش فى خبر طويل[٤] .

* * *

(١) السيرة النبوية ١ : ١٢ ، والمؤتلف والمختلف : ١٢ ، وغيرهما .
(٢) معجم البلدان .
(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢١٢ ، والأغانى ، دار الكتب ٩ : ١٠٨ .
(٤) الشعر والشعراء ١ : ٢١٢ .

المؤثرات التى وجهت حياته :

فإذا ما طوينا هذا التمهيد المجمل ، وجدنا أن فى حياة الأعشى عاملين كان لهما الأثر الأكبر فى توجيه حياته وطبعها بطابعها ، أولهما : اللهو ، وثانيهما : الرحلة والتنقّل .

لهو الأعشى :

أما أن الأعشى كان مُكبًّا على اللهو ، منغمسًا فى الملذّات ، ينهب المتعة نهبًا كأنّما يسابق إليها الحياة فيسبقها ، فأمرٌ من الوضوح والجلاء بمنزلة لا تحتاج إلى كبير جهد لتبيانها . فقد بدا ذلك فى شعره ، بل طغى على شعره ، حتى اتّسم به وشعّ منه ، وأجمعت عليه الروايات التى تناولت طرفًا من حياة الأعشى ، حتى لا نجد رواية منها تشذّ عن سائر أخواتها . ولهوه هذا قائم على ثلاث دعامات رئيسية : الخمر ، والنساء ، والغناء ، وهى الدعامات ذاتها التى قدّمنا أنها كانت عماد لهو سائر الشعراء .

١ ــ فقد كان للأعشى فى أثافيت ــ وكانت تُسمَّى فى الجاهلية دُرْنَى[1] ــ مِعْصَرٌ للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل أثافتَ من أعنابهم . ويروون فى قصيدته البائية قوله :

أُحِبُّ أَثافِتَ وقْتَ القِطَافِ ووقْتَ عُصَارةِ أَعْنابِها

وكانت داره بمَنْفُوحة اليمامة مَألَفًا للفتيان وطلاب المتعة واللهو ، حيث كانوا يأكلون ويشربون ويقصفون . ذكر أبو الفرج[2] أن المحلّق الكلابى ، حين لحق بالأعشى ، لم يدركه إلا فى منزله بمنفوحة اليمامة ، فوجد عنده عدّة من الفتيان قد غذاهم بغير لحم ، وصبّ لهم فَضِيخًا ، فهم يشربون منه ، إذْ قُرع الباب فقال : انظروا من هذا . فخرجوا فإذا رسول المحلّق يقول كذا وكذا

---

(١) صفة جزيرة العرب ــ ليدن : ٦٦ ، ومعجم البلدان (أثافت) .

(٢) الأغانى ــ دار الكتب ٩ : ١١٦ .

(وكان أحضر معه للأعشى ناقة وخمراً وبُرْدَيْن) فدخلوا عليه وقالوا : هذا رسول المحلّق الكلابى ، أتاك بكيت وكيت . فقال : ويحكم ! أعرابى والذى أرسل إلىّ لا قدر له ! والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر فى جوفى لأقولن فيه شعراً لم أقل قطّ مثله . فواثبه الفتيان وقالوا : غبتَ عنّا فأطلت الغيبة ، ثم أتيناك فلم تطعمنا لحمًا ، وسقيتنا الفضيخ ، واللحمُ والخمرُ ببابك ، لا نرضى بهذا منك . فقال : ائذنوا له . . . وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها ، وشقّوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سنامها ، ثم جاؤوا بهما ، فأقبلوا يشوون ، وصبّوا الخمر فشربوا ، وأكل معهم وشرب . . .

أما شعر الأعشى فى الخمر فهو كثير طويل ، يكشف لنا عن مدى كلف الأعشى بالخمر وشغفه بها . وقد كان الإمام الذى شقّ لمن بعده — كالأخطل ثم أبى نؤاس — السبيل ومهّدها لهم فى هذا الفنّ ، ومن اليسير تتبع كثير من الصور الخمرية عند الأخطل وأبى نؤاس وإرجاعها إلى الأعشى . ولا نحبّ أن نطيل الاستشهاد والتمثيل من هذا الشعر ، وإنّما حسبنا هذه الأبيات لتكشف لنا عن غرامه بالخمر ، فهو القائل[١] :

على كل أحوالِ الفَتَى قَدْ شَرِبْتُهَا غَنِيًّا وصُعْلُوكاً وما إنْ أفَارُهَا

وهو القائل[٢] :

فَقَدْ أَشْرَبُ الراحَ قَدْ تَعْلَمِ ينَ يَوْمَ المُقَامِ ويَوْمَ الظَّعَنْ
وأَشْرَبُ بالرِّيفِ حتَّى يُقا لَ : قد طال بالرِّيفِ ما قد دَجَنْ

وهو القائل[٣] ، يذكر لنا الخمّارين ، وسِوامهم فى الخمرة ، وإغلاءهم فى ثمنها ، وكان مع ذلك يهين فى سبيلها ماله :

---

(١) ديوانه ، قصيدة : ١٠ بيت : ١٦ .
(٢) ديوانه ، قصيدة : ٢ بيت : ١٤ ، ١٥ .
(٣) قصيدة : ٢٩ بيت : ١٩ — ٢١ .

تخيَّرها أَخُو عَانَاتَ شَهْرًا وَرَجّى أَوْلَها عَاماً فَعَاما
يُؤَمِّلُ أَنْ تكونَ لهُ ثَرَاءً فأَغْلَقَ دُونَها وَعَلا سِوَامَا
فأَعْطَيْنَا الوفاءَ بها وكُنَّا نُهينُ لِمِثْلِها فينا السَّوَاما

ذلك غير ذكره للحانات ، ومجالس الشراب ، وتفنّنه فى أوصاف الخمر تفنّنًا هو آية فى الإبداع ، ولكنه حديث طويل يغنينا عنه ما أثبتنا .

وقد عرف الناس للأعشى هذا الغرام بالخمر خاصة — وباللذائذ عامة — واستهتاره بها ، حتى إنّه لمّا ذهب[1] إلى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ليعلن إسلامه وبلغ خبرُه قريشًا ، رَصَدُوه على طريقه . . . فلما ورد عليهم قالوا له : أين أردتَ يا أبا بصير ؟ قال : أردتُ صاحبكم هذا لأسلم . قالوا : إنّه ينهاك عن خلال ، ويحرّمها عليك ، وكلّها بك رافق ولك موافق . قال : وما هى ؟ فلما قالوا له إنها : الزنا والقمار والربا والخمر ، لم يأبه إلا للزنا والخمر ، وقال : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطْيَبَيْن : الزِّنا والخمر .

وقد لزمته هذه الشهرة بالخمر حتى بعد موته ، فقد روى أبو الفرج[2] أن محمد بن إدريس بن سليمان بن أبى حفصة قال : قبر الأعشى بمنفوحة ، وأنا رأيته ، فإذا أراد الفتيان أن يشربوا خرجوا إلى قبره فشربوا عنده ، وصبّوا عنده فضلات أقداحهم .

وروى[3] كذلك عن على بن سليمان النوفلى أن أباه قال : أتيت اليمامة واليًا عليها ، فمررت بمنفوحة وهى منزل الأعشى التى يقول فيها :

بشطِّ منفوحةَ فالحاجرِ

فقلت : أهذه قرية الأعشى ؟ قالوا : نعم ، فقلت : أين منزله ؟ قالوا : ذاك ،

---

(١) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١٢٥ .
(٢، ٣) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١٢٦ .

وأشاروا إليه . قلت : فأين قبره ؟ قالوا : بفناء بيته . فعدلت إليه بالجيش ، فانتهيت إلى قبره ، فإذا هو رطب . فقلت : مالى أراه رطبًا ؟ فقالوا : إن الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح صبّوه عليه لقوله : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين : الزنا والخمر .

* * *

ب — وقوله هذا يقودنا إلى العماد الثانى من عمد لهوه . وهو : الزنا ، أو ولعه بالنساء ، وهو — كولعه بالخمر — واضح وضوحًا شديداً فى شعره ، فهو القائل[١] :

وَقَبْلَكِ سَاعَيْتُ فى رَبْرَبٍ ... إذا نامَ سامِرُ رُقَّابِهَـا
تُنَازِعُنِى إذْ خَلَتْ بُرْدَها ... مُفَضَّلَةً غَيْرَ جِلْبَابِهَا
فَلَمّا الْتَقَيْنَا على بابِهَا ... وَمَـدّتْ إلىّ بأَسْبَابِهَا
بَذَلْنَـا لها حُكْمَهَا عِنْدَنَا ... وجادَتْ بِحُكْمى لأُلْهَى بِهَا
فَطَوْرًا تكونُ مِهَادًا لَنَا ... وَطَوْرًا أَكونُ ، فَيُعْلَى بِهَا
على كلّ حالٍ لها حالَةٌ ... وكلُّ الأَجَارِىِّ يُجْرَى بِهَا

وهو القائل أيضًا[٢] :

وَبَيْضَاءِ المَعَاصِمِ إلْفِ لَهْوٍ ... خَلَوْتُ بِشَكْرِها ليلاً تِماما

وهو القائل[٣] :

وأَخون غفلة قومها ... يمشون حول قبابهـا
حذرًا عليها أن ترى ... أو أن يطاف ببابهـا

---

(١) قصيدة : ٢٢ .
(٢) قصيدة : ٢٩ بيت : ٢٣ .
(٣) قصيدة : ٣٩ .

إلى قوله :

فَدَخَلْتُ إذْ نامَ الرقِيـ ـبُ فَبِتُّ دون ثِيابِهَا
حتَّى إذا ما اسْتَرْسَلَتْ مِنْ شِدَّةٍ لِلْعَابِهـا
قَسَّمْتُهَا قِسْمَيْن كـ لَّ مُوَجَّهٍ يُرْمَى بهَا
فَثَنَيْتُ جِيدَ غَرِيرَةٍ وَلَمَسْتُ بَطْنَ حِقَابِها

وهو القائل فى بَغِيٍّ وسمسارها[1] :

فَعِشْنَا زَمَاناً وما بَيْنَنَا رَسُولٌ يُحَدِّثُ أَخْبَارَها
وأَصْبَحتُ لا أَسْتَطِيعُ الكلامَ سوَى أَنْ أُراجِعَ سِمْسَارَها

وهو القائل[2] :

وأَقْرَرْتُ عَيْنِى منَ الغَانِيا ت إمّا نِكاحاً وإما أُزَنْ
مِنْ كُلّ بَيْضاءَ مَمْكورَةٍ لها بَشَرٌ ناصعٌ كاللَّبَنْ
تُعاطى الضَّجِيعَ إذا أَقْبَلَتْ بُعَيْدَ الرُّقَادِ وعندَ الوَسَنْ
صَلِيفِيّةً طيِّبـاً طَعْمُهَا لها زَبَدٌ بين كُوبٍ وَدَنْ
يَصُبّ بها السّاقِيَانِ المِزَا جَ مُنْتَصَفَ الليْلِ مِن ماءِ شَنّ

ولا ريب أن هذا الشعر ، وغيره كثير ، يكشف لنا عن أن الأعشى لم يعرف من النساء إلا هذه الطبقة الفاجرة من البغايا ، وأنّه كان يتّخذ المرأة أداة من أدوات لهوه وعبثه .

* * *

(١) قصيدة : ٦٤ .
(٢) قصيدة : ٢ .

حـ ــ وأما دعامة لهوه الثالثة فهى : غرامه بالغناء والقيان ، وهى ما سنتحدّث عنه بعد حين ، وحسبنا الآن أن نشير إلى أنّه كان يرى أن الحياة ، كلّ الحياة ، ليست سوى الاستمتاع بهذه الملذّات الثلاث : النساء ، والخمر ، وغناء القيان ، مجتمعةً ، وأنّه تيسّر له ذلك فقد أتى المعيشة من بابِها ، فهو القائل ، بعد أن يذكر تمتّعه بإحدى النساء[1] :

وكَأْسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ ... وأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بها
لِكَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنِّى امرؤٌ ... أَتَيْتُ المَعِيشَةَ مِنْ بابِهَا
كُمَيْتٍ يُرَى دُونَ قَعْرِ الإِنَا ... كمِثْلِ قَذى العَيْنِ يُقذى بِهَا
وشاهِدُنَا الوردُ والياسَمي ... نُ والمُسْمِعاتُ بِقُصّابِهَا
ومِزْهَـرُنا مُعْمَلٌ دائمٌ ... فأَىّ الثَّلاثَةِ أُزْرَى بِهَا
يَرَى الصَّنْجَ يَبْكى لهُ شَجْوَهُ ... مَخَافَةَ أَنْ سَوْفَ يُدْعَى بهَا

* * *

رحلاته وأسفاره :

ولا ريب فى أن مثل هذه الحياة اللاهية العابثة كانت تتطلّب من الأعشى الكثير من المال لينفقه فى وجوه هذه اللذاذات : من خمر ونساء وقيان ، فاضطره ذلك إلى أن يكثر من الرحلة والتنقّل ، وأن يرتاد كثيراً من البقاع والمواطن ، يمدح السادة والأشراف ، ويتعرّض لنَداهم وصِلاتهم . وقد اشتهر الأعشى بكثرة مدائحه ، وانتجاعه أقاصى البلاد ، يعرض بضاعته على ممدوحيه . حتى لقد قيل إنّه أوّل من تَكَسَّب بشعره ، وإنّه جعله مَتْجَراً يتّجر به نحو البلدان[2] ،

---

(١) قصيدة : ٢٢ .
(٢) العمدة ١ : ٦٤ .

وقد ظهر أثر هذه الرحلات فى شعره ، فمما ينسب إليه قوله[١] :

وقَدْ طُفْتُ للمَالِ آفاقَهُ ... عُمَانَ فَحِمصَ فأُورِيشَلِمْ
أَتَيْتُ النَّجاشيَّ فى أَرْضِه ... وأَرْضَ النَّبِيط. وأَرضَ العَجَمْ
فَنَجْرَانَ فالسَّرْوَ من حِمْيَرٍ ... فأَىَّ مَرَامٍ لَهُ لم أَرُمْ
ومِن بعدِ ذاك إلى حَضْرَمَوْتَ ... فأَوْفَيْتُ همّى وحيناً أَهُمّْ

وقوله[٢] :

وصَحِبْنَا منْ آلِ جَفْنَةَ أَملا ... كاً كراماً بالشامِ ذاتِ الرَّفيفِ
وبنى المُنْذِرِ الأَشاهبِ بالحِيـ ... ـرَة يمشُون غُدْوَةً كالسّيوفِ
وَجُلُنْدَاءَ فى عُمَانَ مُقيماً ... ثمّ قيساً فى حضرموتَ المُنيفِ

فقد أكثر الأعشى إذنْ من التَّطْوَافِ فى داخل الجزيرة العربيَّة ، وفى أطرافها ، بل لقد كان يفد على ملوك فارس[٣] ، وهناك يَرْوُون أنَّه أنشد كسرى قوله :

أَرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المُؤَرِّقُ ... وما بِىَ من سُقْمٍ وما بِىَ مَعْشَق

فقال كسرى : فسِّروا لنا ما قال . فلمَّا فسَّروه قال : إن كان سَهِر من غير سُقْمٍ ولا عشق فهو لصّ !

وكان يَفِدُ أيضًا على الحيرة[٤] ، ويمدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان ، وفيه يقول قصيدته :

ما بُكاءُ الكَبير بالأَطلالِ ... وسُؤالى فهلْ تردّ سُؤالى

---

(١) ديوانه – قصيدة : ٤ .
(٢) قصيدة : ٦٣ .
(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢١٣ .
(٤) الشعر والشعراء ١ : ٢١٤ – ٢١٥ .

وقال له النعمان بن المنذر : لعلَّك تستعين على شعرك هذا ؟ فقال له الأعشى : احبِسْنى فى بيتٍ حتى أقول . فحبسه فى بيت ، فقال قصيدته التى أولها[1] :

أَأَزْمَعْتَ من آلِ ليلى ابتكارا وشطَّتْ على ذى هوًى أن تُزارا

وفيها يقول :

وقيّـــدنى الشّعرُ فى بيتِه كما قَيّدَ الآسرَاتُ الحِمارا

وروى الأعشى عن نفسه أنَّه قدم على النعمان فأنشده :

إلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كان كَلالُها تَرُوحُ معَ الليلِ التِّمامِ وتغْتَدِى

وكان الأعشى يفد أيضًا على ملوك غسَّان ، وعلى أشراف اليمن وحضرموت ، وهذا ثَبَتٌ بأسماء ممدوحيه فى هذه المواطن ، مأخوذٌ من قصائد ديوانه ، وأمام كل ممدوح رقم القصيدة فى الديوان :

الحيرة — الأسود بن المنذر اللَّخْمى (١) إياس بن قَبيصَة الطائى (٢١ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٥٥ ؟ ، ٧٩) النعمان بن المنذر (٢٨)

اليمن وحضرموت — قيس بن معديكرب الكِنْدى (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٥٥ ؟ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٨) سَلامة ذو فائش (٨ ، ٣٥) . رهط عبد المَدَان بن الديَّان من بنى الحارث بن كعب سادة نجران (٢٢ ، ٤٢) بنو الحارث بن معاوية (٦٣) ، مسروق بن وائل (٧٠) .

اليمامة — هوذة بن على الحنفى (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

الحجاز — النبى صلى الله عليه وسلم (١٧) المحلّق (٣٣) عروة بن مسعود الثقفى بالطائف (٦٧) .

---

(١) فى الخزانة رد على ابن قتيبة بأن القصيدة فى مدح قيس بن معدى كرب الكندى إذ فيها : إلى المرء قيس نطيل السرى (الخزانة ١ : ٥٧٥ — ٥٧٨) .

الشام — آل جفنة (٣١) .

وكان من نتيجة هذا التطواف أن استعان الأعشى بالمال الذى جمعه على أن يمضى فى لهوه ومجونه ، ثم كان من نتيجته أيضًا أن اتصل بألوان من الحضارات المختلفة التى ظهرت بعض آثارها فى شعره ، كما سيمر معنا .

* * *

فنه الشعرى ومنزلته بين الشعراء :

لم يختلف القدامى من الرواة والنقاد فى شىء اختلافهم فى أشعر الشعراء ، فما يكاد أحدهم يستحسن بيتًا من الشعر إلا ينطلق ، فى حماسة استحسانه ، إلى أنّ ذاك الشاعر هو الأشعر ! حتى صار عندهم أن جميع الناس هم أشعر الناس ! وأحكامهم هذه ذوقية خاصّةٌ أحيانًا ، وعامةٌ جارفة أحيانًا أخرى ، لا تكاد تركن إلى تعليل أو تفسير إلا فى القليل النادر حينما يستحسنون لفظة أو معنى جزئيًّا ، ومع ذلك فنحن مستطيعون استبانة منزلة الأعشى وفنّه الشعرى من تنسيقنا لجملة من هذه الأحكام ، حتى إذا رجعنا إلى ديوانه وجدنا هذه الأحكام تتّسق مع هذا الشعر .

وأول هذه الأحكام محاولة القدماء تصنيف الشعراء فى مدارس أو مذاهب فنية ، لها أستاذ مقدّم وتلاميذ تابعون . ونحن نجدهم قد أدخلوا الأعشى فى مدرستين مختلفتين ، الأولى : ما رواه ابن رشيق[1] من أن الحُذّاق كانوا يقولون : الفحول فى الجاهلية ثلاثة ، وفى الإسلام ثلاثة متشابهون : زهير والفرزدق ، والنابغة والأخطل ، والأعشى وجَرير . والثانية قولهم[2] : الشعراء ثلاثة : جاهلى وإسلامى ومولّد . . . هم الأعشى والأخطل وأبو نواس . وقد عقّب ابن رشيق على ذلك بقوله : وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها ، ومن يقول بالتصرّف وقلّة التكلّف .

---

(١) العمدة ١ : ٧٧ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٨٢ .

والحكم الثانى[١] : ما ذكره خلف الأحمر من أن الأعشى أجمعُ شعراء الجاهلية. وما ذكره أبو عمرو بن العلاء من أن مَثَلَ الأعشى مَثَلُ البازى يضرب كبير الطير وصغيره . وما ذكره أبو عبيدة[٢] من أن من قدّم الأعشى يحتجّ بكثرة طِوَالِه الجِيَاد ، وتصرّفه فى المديح والهجاء وسائر فنون الشعر ، وليس ذلك لغيره .

وأما الحكم الثالث فى سلسلة هذه الأحكام فهو قولهم : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب . . . والأعشى إذا طرب .

والحكم الرابع يتصل بلقب الأعشى ، فقد كان يلقّب صنّاجةَ العرب ، وقد ذهبوا مذاهب شتّى فى تفسير هذا اللقب . ذكر ابن قتيبة[٣] أنّه إنّما سُمِّىَ صنّاجة العرب لأنّه أول من ذكر الصَّنْج فى شعره . وذكر أبو الفرج[٤] أنّه سُمِّىَ بذلك لأنّه كان يُغَنّى فى شعره ، وروى ابن رشيق[٥] أنّه سُمّى صناجة لقوة طبعه وحِلْيَة شعره ، يخيّل إليك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك .

وربّما كانت هذه مجتمعة سبب التسمية وإن كان آخرها أجودها .

وأما الحكم الخامس فهو ما رووه عن سَيْرُورة شعره ، وأنّه كان أسْيَرَ الناس شعراً ، وأعظمهم فيه حظًّا ، حتى كاد ينسى الناسُ أصحابَه المذكورين معه[٦] .

ولو عدنا إلى هذه الأحكام لنستخلص منها خصائص فنّ الأعشى فى شعره ، ومنزلته بين الشعراء ، لوصلنا إلى أن ذلك يتلخّص فى :

١ — أنّه كان عذب الألفاظ يسيرها ، وأن فى شعره وفرة من الموسيقى الداخلية

---

(١) المصدر السابق ١ : ٧٧ .
(٢) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١٠٩ .
(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢١٣ .
(٤) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١٠٩ .
(٥) العمدة ١ : ١١٠ .
(٦) العمدة ٢ : ١٧٢ .

فى اللفظ ، والموسيقى الخارجية فى البحر ، وذلك تشبيههم له بجَرير فى المدرسة الأولى التى قدّمناها ، وتسميتهم له بصنّاجة العرب ، وأنّه يخيّل إليك إذا أنشدته أنّ آخر ينشد معك .

٢ — وأنّه كثير التصرّف فى فنون الشعر ، وأنّه كالبازى يضرب كبير الطير وصغيره .

٣ — وأنّه ، مع هذا التصرّف ، أكثر من ذكر الخمر وأوصافها فاشتهر بها ، وذاك تشبيههم له بالأخطل وأبى نواس فى المدرسة الثانية التى قدّمناها ، وقولهم إنّه أشعر الناس إذا طرب .

٤ — وأنّه كان أكثر أصحابه حظًّا من سيرورة الشعر وذيوعه .

وسنعود إلى تفصيل القول فى كل ذلك ، وإظهار أثر القيان والغناء فى هذه الخصائص الفنية .

* * *

القيان والأعشى :

علاقة الأعشى بالقيان وغنائهنّ علاقة قوية عميقة ، فقد كان يسمعهنّ فى مجالس ممدوحيه . روى أبو الفرج[1] أن الأعشى كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء : يسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومى ، فإذا انصرف أجزلوا صِلته . وقد ذكر الأعشى فى إحدى قصائده أن بعض ممدوحيه كانوا يسمعونه غناء القيان ، وذلك قوله فى قيس بن معديكرب[2] :

قاعدًا حَوْلَهُ النَّدامى فما يَنْـ ... ـفَكّ يُؤْتَى بِمُوكَرٍ مَجْدوفِ

وَصَدُوحٍ إذا يُهَيِّجُهَا الشَّرْ ... بُ تَرَقَّتْ فى مِزْهَرٍ مَنْدوفِ

---

(١) الأغانى — ساسى ٦ : ٦٩ — ٧٠ .

(٢) ديوان الأعشى ، قصيدة : ٦٣ .

وقد أسهب الأعشى فى وصف القيان وغنائهنّ ومجالسهنّ وآلات عزفهن ، إسهاباً ما بعده مطمع . فإذا أردنا أن نتبين أثر هؤلاء القيان فى الأعشى وشعره سلكنا السبل نفسها التى بيّنّاها فى الفصلين الأول والثانى من هذا الباب ، حين تحدّثنا عن أثر القيان فى الشعراء الجاهليين عامةً وفى شعرهم ، وسنجد حينئذ أنّنا فى تتبّعنا هذه السبُل سنُطيف بجميع هذه الخصائص الفنية التى قام عليها شعر الأعشى . وقد ذكرنا فى الفصل الأول أن أثر القيان فى الشاعر ذو مسربين ، أولهما : أثر عام طبع حياة الشاعر بطابع اللهو واللذّة والمجون . وثانيهما : أثر خاص حين تكون القينة وحياً للشاعر يتعشّقها ويصفها .

الأثر الأول — حياة اللهو والمجون :

وقد فصّلتُ القول فى هذا الأثر فى صدر هذا الفصل ، ولكنى متناول هنا جانباً آخر منه ، هو وصفه لهذه الحانات ودور الخمّارين ، حيث كان الأعشى يستمتع بالخمر والمرأة والغناء معاً . فهو القائل يصف إحدى هذه الحانات ، وقد كان فيها بَغِىّ وخمر وقينتان وصنّاجة[1] :

فَعِشْنَا زَمَاناً وما بيننَا ... رَسُولٌ يُحدِّثُ أَخْبَارَها
وأَصبَحتُ لا أَسْتَطيعُ الكَلامَ ... سِوَى أَن أُرَاجِعَ سِمْسَارَهَا
وصهبَاءَ صِرْفٍ كَلَوْنِ الفُصُو ... صِ باكرتُ فى الصّبحِ سَوّارَها

إلى أن يقول :

ومُسْمِعَتَانِ وصَنّـاجَةٌ ... تُقَلّبُ بالكفِّ أَوتارَها
وبَرْبَطُنَـا معْمَلٌ دائمٌ ... فقد كادَ يَغْلِبُ إسكارَها
وذو تَوْمَتَيْنِ وقاقُزَّةٌ ... يَعُلُّ وَيُسْرِعُ تَكرَارَهَا

(١) ديوانه ، قصيدة : ٦٤ .

وهو القائل كذلك يصف الحانة وخمرها وغناء القيان فيها ومجالسهن [١] :

وقد غدَوْتُ إلى الحانوتِ يَتْبَعُنى ... شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ
فى فِتْيَةٍ كسيوفِ الهندِ قد عَلِمُوا ... أَنْ ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلة الحِيَلُ
نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئاً ... وقهوةً مُزَّةً رَاوُوقها خَضِلُ
لا يستفيقونَ منها وهى راهنةٌ ... إلا بِهَاتٍ ، وإنْ عَلُّوا وإنْ نَهَلوا
يَسْعَى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطَفٌ ... مُقلِّصٌ أَسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ
ومُسْتَجِيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يسمعُهُ ... إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ
مِنْ كل ذلك يومٌ قد لَهَوْتُ به ... وفى التَّجاربِ طولُ اللَّهو والغَزَلُ
والسّاحِبَاتُ ذُيولَ الخَزِّ آونَةً ... والرّافلاتُ على أَعجازِهَا العِجَلُ

وأحسب أنّ فى هذا القدر ، إذا ضُمّ إلى سابقه فى صدر هذا الفصل ، مايكفينا لبيان هذه الحياة اللاهية العابثة التى كان يتمتّع بها الأعشى ، وأن القيان كان لهنّ مشاركة واسعة فى هذا اللهو ، وأثر كبير فى استمتاع الأعشى به .

الأثر الثانى — الخاص :

وإنّما أقصد منه ، كما بيّنت ، أن تكون القينة وحيًا للشاعر تثير فيه دواعى القول ، فينظم فيها متغزّلاً متشوّقًا ، أو واصفًا مفاتن جسدها وصوتها . وحظّ الأعشى من هذا الأثر حظ موفور ، لا يدانيه فيه شاعر جاهلى ، فقد عُرف عنه أنّه كان يتغزّل بثلاث قيان هنّ : قَتْلَة وجُبَيْرة وهُرَيْرة . وهى أسماءٌ أكثرَ الأعشى من ترديدها فى شعره ، ولا بدّ لى من تناولها على مرحلتين : أعرض فى الأولى الأخبار والروايات التى ذكَرَتْهُنّ ، وأبسط القول فى الثانية عن شعر

---

(١) ديوانه ، قصيدة : ٦ .

الأعشى الذى ورد ذكرهن فيه . وسنرى أن فى المرحلتين ما يستدعى هذا التقسيم .

أما الأخبار والروايات عنهنّ فهى قليلة مقتضبة ، تستوقف الباحث بغموضها وتعميمها ، حتى ليكاد يظنّ أنها وُضعت وضعاً لتفسير الشعر . فقد اعترضت هذه الأسماء سبيل الرواة ، وكان لا بدّ من خبر عنها ، فكانت ، فيما أرى ، هذه الروايات . قال أبو عبيدة[١] : قتلة وجُبَيْرة وهُرَيْرة قيان لآل عمرو بن مرثد . وروى أبو حاتم عن أبى عبيدة عن فراس بن الخندف قال[٢] : كانت هريرة وخليدة أختين قينتين كانتا لبشر بن عمرو بن مرثد ، وكانتا تُغنّيانه النَّصْب ، وقدم بهما اليمامة لمّا هرب من النعمان . وروى عن مشايخ بنى قيس بن ثعلبة قالوا[٣] : كانت هريرة التى يشبّب بها الأعشى أمة سوداء لحسان بن عمرو بن مرثد . وقد ذكر التبريزى[٤] أن أبا عبيدة قال : هريرة قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قيس بن حسان بن ثعلبة بن عمرو بن مرثد فولدت له خليداً ؛ وقال : خليدة هى هُرَيْرة وهى أم خُلَيْد . وذكروا أن الأعشى أنشد هاجسه مِسْحَل بن أُثَاثَة :

ودِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكبَ مُرْتَحِلُ وهلْ تُطِيقُ وَداعاً أيُّهَا الرجُلُ ؟

فقال له مِسْحَل : مَنْ هريرة هذه التى نسبت فيها ؟ قال الأعشى : لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها[٥] (امرأة أخرى تغزّل فيها الأعشى وذكر أنّه لا يعرفها وإنّما هو اسم عرض له) .

ذلك هو كل ما عثرتُ عليه من أخبار هؤلاء النسوة . ونبدأ بإسقاط الرواية الأخيرة لوضوح الجانب الأسطورى فيها ، وإن كانت مع ذلك لا تخلو من دلالة تقوّى ما سنذهب إليه . وأما الروايات الأربع الأخرى فإنّنا نلحظ اشتراك

---

(١) المصدر السابق ، قصيدة : ٦ .

(٢ و ٣) الأغانى – ساسى ٨ : ٧٦ – ٧٧ .

(٤) شرح المعلقات العشر : ٢٨٨ .

(٥) أحمد أمين الشنقيطى ، تراجم أصحاب المعلقات العشر وأخبارهم – الطبعة الأولى سنة ١٣٢٩هـ ، ص : ٣٦ – ٣٧ هـ .

أبى عبيدة فى رواية ثلاث منها .وخلاصتها جميعاً أن هؤلاء النسوة قيان لآل عمرو ابن مرثد ، وأن هريرة حيناً لبشر بن عمرو ، وأنها حيناً آخر لحسان بن عمرو ، وأنها حيناً ثالثاً لرجل من آل عمرو أهداها إلى قيس بن حسان . ثم نجد أن أباعبيدة نفسه يذكر فى موضع أن هريرة وخليدة أختان ، ثم يذهب فى موضع آخر إلى أن خليدة هى هريرة وهى أم خليد . ثم لا شىء غير ذلك . . .

فماذا فى شعر الأعشى عنهن ؟ . . .

ورد ذكر هُرَيْرَة فى شعر الأعشى فى ثلاث قصائد ، وجُبَيْرة فى قصيدتين وقَتْلَة — ويصغّرها أحياناً — فى اثنتى عشرة قصيدة . وليس فى هذه القصائد جميعها إشارة قريبة أو بعيدة إلى أنهن قيان ، مع أن الأعشى أكثر من ذكر القيان والغناء ، وفصّل القول فى مجالس الغناء واللهو والشراب . بل إنّه ، فى بعض قصائده ، جمع بين ذكر هؤلاء النسوة فى أبيات من قصيدة وبين ذكر القيان ومجالس السماع والشراب ، ولكن ليس فى سياق القصيدة ما يمكن أن يشفّ عن أنهنّ هنّ اللواتى كنّ يغنّين فى تلك المجالس . ففى معلّقته مثلاً ذكرٌ لهريرة ، ووصف طويل لأخلاقها ومفاتن جسدها يزيد على أربعين بيتاً ، تشمل ذكريات لهوه وغَوَاياته ، فهو يبدأ المعلقة بوداع هريرة[1] :

* وَدِّعْ هُريرَةَ إنّ الرّكبَ مُرْتَحِلُ *

ولترتيب أبيات هذه المعلّقة بعد ذلك روايات مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف لا يؤثّر فى ما نحن بصدده ، إذ أن الأعشى ، حينما يذكر الغناء والقيان فى هذه القصيدة ، ينفصل عن هريرة نفسها ، ويسوق ذلك إلينا على أنّه ذكريات لهو يفخر بها ويتلهّف عليها ، ثم يذكر صراحةً أن ذلك كان فى إحدى الحانات :

وقد غدَوْتُ إلى الحانوت يتْبَعُنى شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

---

١)ديوانه قصيدة : ٦ .

وكذلك نجد فى قصيدته فى قُتَيلة[١] :

أَلَمّ خَيَالٌ من قُتَيلَةَ بعْدَما وَهَى حبلُها منْ حَبلِنَا فتَصرّما

أنّه لم يذكر صاحبته إلاّ ليتوسّل بها إلى الخمر ، فهو من البيت الثانى يمضى فى وصف هذه الخمر إلى غير عودة لقتيلة . وذكره للغناء وآلاته بعد ذلك إنّما هو استمرار فى هذا التشبيه ويبدو أنه منقطع الصلة بقتيلة نفسها . بل إن فى شعر الأعشى ما لا يتّفق مع ما روى عن مشايخ بنى قيس بن ثعلبة من أن هريرة أمة سوداء ، فقد تَغَزّل فى بياض بَشَرَتَى هُرَيْرَة وقُتَيلَة ونقائهما وصفائهما ، قال فى هريرة[٢] :

غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تمشى الهُوَيْنَا كما يمشى الوَجِى الوَحِلُ

وقال فيها[٣] :

وَوَجْهٌ نَقِىُّ اللّوْنِ صَافٍ يَزِينُهُ مَعَ الحَلْىِ لَبّاتٌ لَهَا ومَعاصِمُ

ويقول فى قتيلة نافيًا عنها سواد بشرتها[٤] :

لَيْسَتْ بِسَوْداءَ ولا عِنْفِصٍ تُسَارِقُ الطَّرْفَ إلى الدَّاعِرِ

ويقول فيها[٥] :

ووَجْهاً كالفِتَاقِ ومُسْبَكِرًّا على مِثْلِ اللُّجَينِ وهُنّ سُودُ

ويقول[٦] :

بيضاءُ جَمّاءُ العِظامِ لَهَا فَرْعٌ أَثيثٌ كالحِبَالِ رَجِلْ

---

(١) قصيدة : ٥٥ .
(٢) قصيدة : ٦ ، بيت : ٢ .
(٣) قصيدة : ٩ ، بيت : ٤ .
(٤) قصيدة : ١٨ ، بيت : ٨ .
(٥) قصيدة : ٦٥ ، بيت : ٩ .
(٦) قصيدة : ٥٢ ، بيت : ١٣ .

ونجد بعد ذلك أن الأعشى يُضْفى على هؤلاء النساء من صفات خُلُقية وفضائل نفسية ما لا توصَفُ به إلاّ سيِّدة حرة ، كريمة الخلق ، فاضلة النفس . فيصف هريرة بطيب العنصر ، وحسن الجوار ، والتَّرف والنعيم ، وأنها لم تتعوّد العمل ، فلا تكاد تنهض لما ينهض له النساء من معالجة شئون البيت فهى لذلك مكسال لا تقوم لجارتها إلا تحاملت على نفسها متشدّدة ، فيقول :

كأَنَّ مِشْيَتَها من بيْت جارتها ... مَرُّ السَّحَابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

ليستْ كمنْ يكْرَهُ الجيرانُ طلعتَها ... ولا تَرَاها لسِرِّ الجارِ تختَتِلُ

يكادُ يَصْرَعُهَا لولا تشدّدها ... إذا تقومُ إلى جاراتها الكَسَلُ

ويقول فى قتلة[1] :

حُرَّةٌ طَفْلَةُ الأَنامِلِ كالدّمْـ ... ـيَة لا عابسٌ ولا مِهْزَاقُ

ويقول فيها أيضًا[2] :

ليستْ بسوداءَ ولا عِنْفِصٍ ... تُسارِقُ الطَّرْفَ إلى الدّاعرِ

عَبْهَرَةُ الخَلْقِ بُلاخيّةٌ ... تَشُوبُهُ بالخُلُقِ الطَّاهرِ

ولكنّ وصف الأعشى لهنّ لا يتّسق كله على هذا النسق ، بل ربّما جمحت به شهوة عارمة فيتلظّى شعره بسُعارٍ عنيف من الوصف الحسّى لأجسادهن ، فيقول فى قتلة[3] :

لها قَدَمٌ رَيّا سِباطٌ بَنَانُهَا ... قد اعتدلتْ فى حُسْنِ خَلْقٍ مُبَتَّلِ

وساقانِ مارَ اللَّحْمُ مَوْرًا عَلَيهِمَا ... إلى مُنتَهى خَلْخالها المُتَصَلصِلِ

---

(١) قصيدة : ٣٢ ، بيت : ٩ .

(٢) قصيدة : ١٨ ، بيت : ٨ ، ٩ .

(٣) قصيدة : ٧٧ ، بيت : ٢٠ - ٧ .

إذا الْتُمِسَتْ أُرْبِيَّتَاها تساندَتْ ... لها الكفُّ فى رَابٍ من الخَلْقِ مُفْضِلِ
إلى هدفٍ فيه ارتفاعٌ تَرَى لَهُ ... من الحسن ظلاًّ فوْق خَلْقٍ مُكمَّلِ
إذا انبطَحتْ جافَى عن الأَرْض جَنبُها ... وَخَوّى بها رابٍ كَهَامةِ جُنْبُلِ
إذا ما عَلاها فارسٌ مُتَبَذِّلٌ ... فَنِعْمَ فِرَاشُ الفارسِ المُتَبَذِّلِ

ويقول فى هريرة[1] :

نِعْمَ الضَّجيعُ غَداةَ الدجنِ يَصْرَعُها ... للذَّةِ المَرْءِ لا جافٍ ولا تَفِلُ
قالتْ هُرَيرَةُ لمّا جئْتُ زائرَهَا : ... وَيْلى عليكَ وَوَيْلى منْكَ يا رَجُلُ

وهكذا نجد شيئًا من الخلاف بين الروايات والشعر ، ولكن هذا الخلاف ليس من الصراحة والدّلالة الواضحة بمنزلة تبيح لنا أن ننفى تلك الروايات نفيًا قاطعًا ، ولكنّه خلاف يصحّ أن يُلْتَفَتَ إليه وينبَّه عليه فى مثل هذا المقام .

وإذا كان لا بدّ لنا من التوفيق بين هذا الشعر المتناقض فى نفسه أولاً ، والروايات المتناقضة فى نفسها ثانيًا ، قلنا إن هؤلاء النسوة ربّما كنّ قيانًا ، وإنهنّ ربّما كنّ يختصصن بمالك واحد : قد يكون أحد بنى عمرو بن مرثد ، وإنهنّ كنّ يغنّين فى مجالس حافلة جامعة لا يبعد أن تكون فى الحانات والدور العامة ، وذلك تعليل جمع الأعشى فى معلّقته بين تغزّله بهريرة وذكره للحانوت حيث سمع الغناء وشَرِبَ الخمر . ويبدو أن هؤلاء النسوة كنّ فى نعمة وارفة ، إما فى كَنَف سيدهنّ ومالكهنّ ، وإمّا بسبب ما جمعن من مالٍ وفير من حرفتهن ، فكان الأعشى إذا رآهنّ يمرحن فى هذا النعيم فى بيوتهنّ انطلق يصفهن هذا الوصف الذى لا توصف به إلاّ حرة غنية مترفة كريمة الأخلاق ، ولكنه إذا ما رآهنّ فى مجالس الغناء — وهنّ يفتنّ الشّرّب بأصواتهن ، ويخلبن

---

(١) قصيدة : ٦ ، بيت : ١١ و ٢١ .

ألبابهم بمفاتن أجسادهن — تنزّت فيه عوامل الشَّهْوة والإغراء الحسّى ، فتدفّق منه هذا الوصف الماجن الغَوِىّ الذى يُجَرِّدُهنّ فيه من ثيابهنّ ، ويقلّبهن تقليباً يصوّر فيه أمانى شهوته الحسية وآمال رغائبه الجسدية .

وبعد هذه المحاولة للتوفيق بين الشعر والروايات ، نعود إلى شعر الأعشى فى هؤلاء النسوة ، فنرى أن نصيب هريرة وقتلة من شعر الأعشى قد فاق نصيب غيرهما . فهو يصف هريرة ذاكراً لهوه وعبثه فى ما يزيد على أربعين بيتاً من مطوّلته وصفاً مفصّلاً ألْمَمْنَا بطرف منه . ثم يعود إليها فى قصائد أخَر ، ولكنه يكتفى فيها بالذكر العابر . . . وهريرة فى جميع هذه القصائد راحلة مودّعة ، أو لعلّه كان هو الراحل المودّع لكثرة ما طوّف فى الآفاق ، فهو يقول[1] :

وَدِّعْ هُرَيرَةَ إنَّ الركْبَ مُرْتَحِلُ وهل تطيقُ وداعاً أيّها الرَّجُلُ

ويقول[2] :

هُرَيْرَةُ وَدِّعْها وإن لامَ لائمُ غَداةَ غَدٍ أم أنْتَ للبَيْن واجمُ

ويقول[2] :

كانَتْ وَصَاةٌ وحَاجاتٌ لها كَفَفُ لو أنَّ صَحْبَكَ إذْ ناديْتَهُمْ وَقفوا
على هُرَيْرَةَ إذْ قامَتْ تُوَدِّعُنَا وَقَدْ أتَى من إطَارٍ دُونَها شَرَفُ

وإذا كانت هريرة ظاعنة أبداً لاتكاد تستقرّ بها النوى فى قصائد الأعشى ، فإن قتلة مقيمة أبداً لا تكاد تَريم ، وليس لها من البعد إلا هذا الهجر الذى يُضرِم فى

---

(١) قصيدة : ٦ .
(٢) قصيدة : ٩ .
(٣) قصيدة : ٦٣ .

نفس الشاعر وَقْدَة مستعرة فيقول[١] :

مِنْ ديارٍ بالهَضْبِ هَضْبِ القَلِيبِ ... فَاضَ ماءُ الشئون فَيْضَ الغُرُوبِ

أَخْلَفَتْنى به قُتَيْلَةُ مِيعَا ... دى وكانَتْ للْوَعْدِ غيرَ كَذُوب

ظَبْيَةٌ منْ ظِبَاءِ بَطْن خُسَافٍ ... أُمُّ طِفْلٍ بالجَوِّ غيرِ رَبِيبِ

كنْتُ أَوْصَيْتُهَا بأَنْ لا تُطيعى ... فىّ قَوْلَ الوُشَاةِ والتَّخْبيبِ

ويقول[٢] :

أَلا يا قَتْلُ قَدْ خَلَقَ الجَديدُ ... وحُبُّكِ ما يَمُحّ ولا يَبِيدُ

ويقول[٣] :

صَحا القلبُ من ذكرَى قُتَيلَةَ بعْدما ... يكُونُ لها مثْلَ الأَسير المُكَبَّلِ

ويقول[٤] :

أَلَمّ خَيالٌ مِن قُتَيلَةَ بَعْدَما ... وَهَى حَبْلُهَا من حَبْلنَا فتصَرَّما

ويقول[٥] :

شَاقَتْكَ مِنْ قَتْلَةَ أَطْلالُهَا ... بالشَّطِّ. فالوِتْرِ إلى حَاجِرِ

ويقول[٦] :

وقد قالتْ قُتَيْلَةُ إِذْ رَأَتْنى ... وقَدْ لا تَعْدَمُ الحسْناءُ ذَامَا :

---

(١) قصيدة : ٦٨ .
(٢) قصيدة : ٦٥ .
(٣) قصيدة : ٧٧ .
(٤) قصيدة : ٥٥ .
(٥) قصيدة : ١٨ .
(٦) قصيدة : ٢٩ .

أَراكَ كَبِرْتَ واسْتَحدَثْتَ خُلْقاً وَوَدّعْتَ الكَواعبَ والمُدَامَا

ويقول[١] :

ذلكَ مِنْ أَشْبَاهِ قَتْلَةَ أَوْ قَتْلَةُ منهُ سافرًا أَجْمَلْ

الأثر الثالث : غزارة شعره فى وصف القيان وآلاتهن ومجالس غنائهنّ .

فإذا ما جُزْنا هؤلاء النسوة الثلاث وجدنا فى شعر الأعشى وفرةً غزيرة من الأبيات يصف لنا فيها القيان ، ومجالس غنائهن ، وآلات عزفهن ، وصفًا فيه استغراق وتعمق ، وفيه شمول وإحاطة ، وفيه بعد ذلك ألوانٌ من الحضارة الزاهية فى المجالس التى كانت تُعَدّ إعداداً فنيًّا لتغرّد فيها هؤلاء القيان . وذلك يكشف لنا عن اتّصال العرب فى هذه المجالس بحضارات الأمم الأخرى ولا سيما الفرس ، واقتباسهم منها ما يتّصل بمظاهرها الماديّة وبمسمّياتها وألفاظها الأعجمية فى أصناف الورود والرياحين ، وضروب آلات العزف ، مما ذكره الأعشى : كالجُلَّسان وَسِيسَنْبَر والمَرْزَجُوش وشاهسْفَرِم ، وكالوَنّ والبَرْبَط والصَّنْج ومُسْتُق سينين إلخ . . .

ولاريب ، بعد الذى قدّمناه ، فى أن الأعشى قد ذكر هذه الألفاظ الأعجمية مصوّراً بها تصويراً واقعيًّا صادقًا ما كان يحيط به منها من أسباب الحضارة المادية ، وأنّه لم يستعملها فى شعره تظرّفًا ، وفى الندرة ، وعلى سبيل الخطرة فحسب ، كما ذكر ابن رَشيق عنه[٢] .

وأنا مورد هنا طرفًا من شعر الأعشى ليدلّ على كثرة وصفه للقيان وآلات الغناء ومجالسه ، وتفنّنه هذا الوصف تفنّنًا فيه روعة وإبداع . فهو فى هذه الأبيات يصف لنا قينة الحانة بملابسها التى تكشف عن محاسنها ، وبمزهرها الذى

---

(١) قصيدة : ٥٢ .

(٢) العمدة ١ : ١٠٧ .

يكاد ينطق لجمال لحنه[١] :

وقد أَقطعُ اليوم الطويلَ بِفِتْيَةٍ مساميحَ تُسْقَى والخِبَاءُ مُرَوَّقُ
ورادعَةٍ بالمسْكِ صَفْرَاءَ عندَنا لجسّ النَّدامى فى يد الدّرْعِ مَفْتَقُ
إذا قلتُ :غنِّى الشَّرْبَ ،قامتْ بِمزْهَرٍ يكادُ إذا دارَتْ له الكفُّ يَنْطِقُ
وشاوٍ إذا شِئنَا كميشٌ بِمِسْعَرٍ وصهبَاءُ مِزْبَادٌ إذا ما تُصَفَّقُ
تُريكَ القَذى من دونها وَهْىَ دونَهُ إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتَمَطَّقُ

وفى الأبيات التالية يصف مجلس غناء نُثِرت فيه الورود والرياحين ، وكانت القيان تُغنّى فيه وتعزف بضروب مختلفة من الآلات[٢] :

وشَاهِدُنا الوردُ واليَاسَمِينُ والمُسْمِعَاتُ بِقُصّابِها
ومِزْهَرُنَا مُعْمَلٌ دائمٌ فأَىُّ الثَّلاثَةِ أَزْرَى بِهَا
ترَى الصَّنْجَ يَبْكى له شَجْوَهُ مَخَافَةَ أَنْ سوفَ يُدْعى بها

وهو يفصّل وصف هذا المجلس فى هذه الأبيات التى يُكثر فيها من ذكر الألفاظ الأعجمية[٣] :

فبِتُّ كأَنّى شَارِبٌ بَعْدَ هَجْعَةٍ سُخَامِيَّةً حَمْرَاءَ تُحسَبُ عَنْدَما

إلى قوله :

بِكأْسٍ وإبريقٍ كأَنَّ شَرَابَهُ إذا صُب فى المِصْحَاةِ خَالَطَ بُقَّمَا
لَنَا جُلَّسانٌ عِنْدها وبَنَفْسَجٌ وسِيسَنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَمَا

---

(١) قصيدة : ٣٣ .
(٢) قصيدة : ٢٢ .
(٣) قصيدة : ٥٥ .

وآسٌ وخِيرِىٌّ ومَرْوٌ وسَوْسَنٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ وَرُحْتُ مُخَشَّمَا
ومُسْتُقُ سِينينٍ وَوَنٌّ وبَرْبَطٌ يُجَاوبُهُ صَنْجٌ إذا ما تَرَنَّمَا

ويصف لنا الأعشى فى قصائد أخرى مجالس الغناء هذه ، وآلات عزفها ، ولكنّ المغنّين من الرّجال هم الذين كانوا يقومون بالغناء فيها ، فيفتنّ فى وصف أثر الغناء فى السامعين وحركاتهم ثم يذكر لنا أن هذه المجالس كانت تشهدها النساء يشاركن الرجال الشرب والسّماع ، وذلك قوله[1] :

ومُغَنٍّ كلَّما قيلَ لهُ : أَسْمِعِ الشَّرْبَ ، فغنَّى فَصَدَحْ
وثَنَى الكفَّ على ذى عَتَبٍ يَصِلُ الصوْتَ بذى زيرٍ أَبَحّْ
فى شَباب كمصابيحِ الدُّجَى ظاهر النَّعْمةِ فيهمْ والفَرَحْ
رُجُحُ الأَحلامِ فى مجْلِسهمْ كلَّما كلْبٌ من الناس نَبَحْ
لا يَشِحُّونَ على المالِ وما عُوِّدُوا فى الحىِّ تَصْرَارَ اللِّقَحْ
فترَى الشَّرْبَ نَشَاوَى كلُّهُمْ مثْلَ ما مُدَّتْ نُصَاحاتُ الرُّبَحْ
بينَ مَغلوب تَلِيل خَدُّهُ وخَذُولِ الرِّجْل من غيرِ كَسَحْ
وَشَغَاميمَ جِسَامٍ بُدَّنٍ ناعماتٍ من هَوَانٍ لم تُلَحْ

وهو يذكر هؤلاء المغنّين وآلاتهم وسامعيهم من الشَّرب فى قصيدة أخرى هى[2] :

وطِلاءٍ خُسْرُوانِىٍّ إذا ذاقَهُ الشَّيْخُ تَغَنَّى وارْجَحَنْ
وطَنَابِيرَ حِسان صوتُهَا عند صَنْجٍ كلَّما مُسّ أَرَنّْ

---

(١) قصيدة : ٣٦ .
(٢) قصيدة : ٧٨ .

وإذا المُسْمِعُ أفنَى صوتَهُ عَزَفَ الصَّنْجُ فنادى صَوْتُ وَنْ
وإذا ما غُضَّ مِنْ صَوْتَيْهِمَا وأَطاعَ اللحْنُ ، غَنَّانا مُغَنْ
وإذا الدّنُّ شَرِبْنَا صَفْوَهُ أَمَرُوا عَمْرًا فَنَاجَوهُ بِدَنّ
بمَتَالِيفَ أَهانُوا مالَهُمْ لِغِنَـاءٍ وَلِلَعْبٍ وأَذَنْ
فترَى إبْرِيقَهُمْ مُسْتَرعفاً بشَمُولٍ صُفِّقَتْ من ماءِ شَن
غُدوَةً حتى يَميلُوا أُصُلاً مِثْلَ ما مِيلَ بأَصْحَابِ الوَسَنْ
ثُمَّ راحُوا مَغْرِبَ الشَّمْس إلى قُطُفِ المَشْيِ قليلاتِ الحَزَنْ

ويشير إلى هذا المُغَنّى ويصف مجلس غنائه فى هذه الأبيات التى ذكرها ابن قتيبة للأعشى ، ولكنى لم أعثر عليها فى ديوانه[1] :

من قهوةٍ باتَتْ بفارسَ صَفْوَةٍ تَدَعُ الفَتَى مَلِكاً يَمِيلُ مُصَرَّعا
بالجُلَّسَان وطَيِّبٍ أَردانُـهُ بالوَنّ يضْربُ لى يَكُرّ الإِصْبعَا
والنَّاى نَرْمٍ وبَرْبَطٍ ذى بُحّةٍ والصَّنْجُ يَبْكى شَجْوَهُ أَن يوضَعَا[2]

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢١٣ — ٢١٤ . وذكرت هذه الأبيات مع أبيات أخرى فى ملحق آخر ديوان الأعشى — ط . بيانه ص ٢٤٨ . وقد سمى الملحق « مجموعة ما أنشدوا للأعشى ميمون من شعر غير موجود من ديوانه » .

(٢) هذه القصائد الثلاث تكشف لنا عن وجود مغنين من الرجال فى العصر الجاهلى ، وهم مغنون — كما يبدو من أوصافهم فى هذه القصائد — محترفون يلهون بالغناء المصنوع الراق ذى التراجيع والترانيم . ومما يؤيد ذلك ما يروى من أن عمرو بن قرة جاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن الله عز وجل قد كتب على الشقوة ، فما أرانى أرزق إلا من دفى بكفى ، فأذن لى فى الغناء فى غير فاحشة . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا آذن لك ولا كرامة . . . (تلبيس إبليس سنة ١٣٤٧ ص : ٢٣٤) ولعل ذلك يجعلنا نتوقف قبل إلقاء الحكم التعميمى الذى ذهب إليه الكثيرون من أن ظهور هؤلاء الرجال المغنين عند العرب لم يكن إلا بعيد عصر عثمان .

الأثر الرابع – بحور شعره :

أما وقد أبنتُ أثر القيان فى الأعشى وشعره من هذه النواحى الثلاث السابقة ، فإنى أنتقل الآن إلى الحديث عن أثر هؤلاء القيان فى شعر الأعشى من ناحية موسيقاه الخارجية الكامنة فى البحور الشعرية .

قدّمت فى حديثى عن أثر القيان فى الشعر الجاهلى عامّة ، فى الفصل الثانى من هذا الباب ، أن ديوان الأعشى يشتمل على اثنتين وثمانين قصيدة موزّعة على عشرة بحور تامّة وثلاثة أبحر مجزوءة . أما التامّة فهى : الطويل ومنه ثمان وعشرون قصيدة ، والبسيط سبع قصائد ، والكامل ست قصائد ، والمتقارب عشر ، والخفيف خمس ، والرَّجَز ستّ ، والوافر سبع ، والرَّمَل قصيدتان ، والسريع قصيدتان ، والمنسرح قصيدة واحدة . وأما البحور المجزوءة فهى : مجزوء البسيط ومنه قصيدة واحدة ، ومجزوء الكامل ست قصائد ، ومجزوء الوافر قصيدة واحدة . فالبحور الطويلة عنده إحدى وأربعون قصيدة ، والبحور الخفيفة إحدى وأربعون قصيدة أيضًا ، منها ثمانٍ بحورها مجزوءة .

وهذا الإحصاء العَدَدِىّ يكشف لنا عن أن الأعشى قد نوّع فى بحور شعره تنويعًا كبيراً ، ما بين بحور طويلة وقصيرة ومجزوءة ، وأنّه بجانب هذا التنويع قد أكثر من البحور القصيرة ، ولا سيما التى تظهر فيها الموسيقى الراقصة ظهوراً واضحًا : كالمتقارب والوافر ، فإنهما بحران راقصان مفعمان بوفرة موسيقيّة حتى من غير أن يُلحَّنَا ، فكيف إذا لُحّنَا وكان لحنهما من الهزج ، وهو اللحن الراقص الذى وصفه ابن رشيق [1] بأنّه يُمْشَى عليه بالدف ، ويُرْقَص ، فيطرب ويستخف الحليم . وقد أكثر الأعشى من قصائد هذين البحرين ، فجاءت عشر قصائد من بحر المتقارب ، وسبع من بحر الوافر . . . ثم إنّه أكثر من هذه البحور المجزوءة ، فجاء بثلاثة منها هى مجزوء البسيط ، ومجزوء الكامل ، ومجزوء الوافر ، وكانت ستّ قصائد من شعره من مجزوء الكامل . ولا شكّ أنّنا لا نجد

---

(١) العمدة ٢ : ٢٤١ – ٢٤٢ .

هذه الكثرة من البحور الخفيفة القصيرة ومن البحور المجزوءة فى ديوان أى شاعر جاهلى كما نجدها عند الأعشى .

ولسنا نقصد من ذلك أن هذا الشعر ذا البحور الطويلة لم يُغَنّ به ، فقد ذكرنا من قبل أن بحور الشعر الجاهلى ، بجميع ضروبها ، بحور غنائية ، وأن القيان والمغنّين قد غنّوا فى العصر الجاهلى وفى العصور الإسلاميّة التالية بالبحور الطويلة كما غنّوا بالبحور القصيرة ، ولكن الذى نريد أن نقوله أن هذه الحياة اللاهية العابثة القائمة على التمتّع بالنساء والخمر والقيان ، هى التى جعلت الأعشى يكثر من البحور القصيرة الراقصة ، سواء منها التام والمجزوء . ولا شك أنّه كان من الطبيعى لشاعر كالأعشى ، كان يرتاد الحانات ، ويخالط فيها القيان ، ويتعشّق بعضهن ، ويستمع لغنائهن ، ويرى رقصهن — أن يتأثّر شعره بهذه العوامل ، فيجىء كثير منه فى هذه البحور الموسيقية الراقصة . وربّما كانت هذه الوفرة من الجرس الصوتى والموسيقى الراقصة هى التى جعلت المغنّين والقيان فى العصور الإسلامية يكثرون من غناء شعره[1] .

---

(١) حفظ لنا كتاب الأغانى بعض هذه الأصوات الغنائية من شعر الأعشى ، من ذلك قوله :

هريرة ودعها وإن لام لائم غداة غد أم أنت للبين واجم

غناه معبد ، وكان يسمى صوته فيه « الدوامة » لكثرة ما فيه من الترجيع (الأغانى — دار الكتب ٩ : ١٠٦) . ومنها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى معشق

ولكن أرانى لا أزال بحادث أغادى بما لم يمس عندى وأطرق

غناه ابن محرز ، خفيف ثقيل أول بالسبابة فى مجرى البنصر (الأغانى ٩ : ١١٤) . ومنها :

فبينى فإن البين خير من العصا وإلا ترى لى فوق رأسك بارقه

وما ذاك من جرم عظيم جنيته ولا أن تكونى جئت فينا ببائقه

ويا جارتا بينى فإنك طالقه كذاك أمور الناس غاد وطارقه

وقد ذكر أبو الفرج عدة مغنين غنوا فى هذه الأبيات منهم : الهذلى وابن جامع وابن سريج (الأغانى ٩ : ١٢١) . ومنها :

فكعبة نجران حتّم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها =

الأثر الخامس ــ ألفاظه ولغته :

ما كنت لأعيد هنا ما قلته فى الفصل السابق عن ألفاظ الشعر الجاهلى ، وتوافر صفتين فى ألفاظ شعر الغناء منه ، هما : عذوبة الألفاظ ويسرها ، والموسيقى الداخلية الناشئة من توالى حروف متشابهة ذات أصوات متقاربة ، ما كنت لأعيد تفصيل القول فى ذلك ، ولا أريد أن أضرب الأمثال من شعر الأعشى على هذه الألفاظ العذبة الموسيقية ، فهى من الكثرة فى ديوان الأعشى بحيث نقع عليها فى أية قصيدة نقرؤها فى ديوانه ، وربّما كانت هذه الموسيقى الداخلية فى اللفظ مع الموسيقى الخارجية فى البحر الشعرى هما اللتين استهْوَتا المغنين والموسيقيين فى العصور الإسلامية ، فغنّوا هذه الأصوات الكثيرة التى ذكرناها فى شعر الأعشى .

ولكنى أريد أن أتحدّث عن الأعشى من ناحية أخرى تتصل بألفاظ الشعر ولغته ، هى ما لاحظه الأستاذ الدكتور طه حسين فى قوله[1] : « وأنت تجد فى شعر الأعشى من السهولة واللين ما تنكر » . وأنا أرى أن شعر الأعشى ، من هذه الناحية ، لا يختلف إلا اختلافًا كمّيًّا عَدَدِيًّا ، عن سائر الشعر الجاهلى وسائر الشعر العربى فى جميع العصور ، فقد كانت فيه هذه الألفاظ العسيرة البادية حين كان يصف ناقته وضربها فى الصحراء ، وفيه هذه الألفاظ السهلة اللينة حين كان يتحدّث عن لهوه ومجونه . وليس فى هذا التّفاوت ما يُنكَر ، فهو فى

= والأبيات الستة التى تليه غناء حنين ومالك وابن مكى (الأغانى ١١ : ٣٨٠) . ومنها الأبيات التى أولها :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتــر

وقد ذكر ابن عبد ربه فى كتابه العقد (٧ : ٢٥) أن قينة لعبد الله بن جعفر غنت بهذه الأبيات وهى من شعر الأعشى :

عهدى بها فى الحى قد جردت صفراء مثل المهرة الضامر
قد حجم الثدى على نحرها فى مشرق ذى بهجة ناضر
لو أسندت ميتاً إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر !

(١) فى الأدب الجاهلى ــ الطبعة الرابعة ص : ٢٨٩ .

ذلك ليس بالشّاذّ المتفرّد ، ولهذه السهولة وذاك اللين ، فى شعر الأعشى خاصةً ، تعليل سأذكره بعد حين .

أما أنّ فى شعر الأعشى ألفاظًا عسيرة غريبة كسائر الشعراء فذلك واضح فى بعض شعره ، كقوله يصف ناقته[١] :

طَلَبتُهُمُ تَطْوِى بِىَ البِيدَ جَسْرَةٌ شُوَيْقِئَةُ النَّابَيْنِ وَجْناءُ ذِعْلِبُ

وقوله يصفها أيضًا[٢] :

وَعَسِيرٍ أَدْمَاءَ حَادِرَةِ العَيْـ ـنِ خَنُوفٍ عَيْرَانةٍ شِمْلالِ
مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ صَلَّبَهَا العُـ ـصُّ وَرَعْىُ الحِمَى وطولُ الحيالِ
قَدْ تَعَلَّلْتُهَا على نَكَظٍ المَيْـ ـطِ وقد خَبَّ لامعاتُ الآلِ
فَوْقَ دَيْمومَةٍ تَغَوَّلُ بالسَّفْـ ـرِ قِفارٍ إلاَّ منَ الآجَالِ

* * *

تَقْطَعُ الأَمْعَزَ المُكَوْكِبَ وَخْدًا بِنَواجٍ سريعَةِ الإِيغَـالِ
عَنْتَرِيسٌ تَعْدو إذا مَسَّهَا السَّوْـ ـطُ كَعَدْوِ المُصَلصِلِ الجوَّالِ

* * *

أَثَّرَتْ فى جَنَاجِنٍ كَأَرَانِ الْـ ـمَيْتِ عُولِينَ فوْقَ عُوجٍ رِسالَ

وقوله[٣] :

ويَهْمَاءَ تَعزِفُ جنَّانُهَا مَنَاهِلُهَا آجِنَاتٌ سُدُمْ

---

(١) ديوانه – قصيدة : ٣٠ .
(٢) ديوانه – قصيدة : ١ .
(٣) قصيدة : ٤ .

قَطَعْتُ برَسَّامَةٍ جَسْرَةٍ عُذافِرَةٍ كالفَنِيق القَطِمْ
غَضُوبٍ منَ السَّوْطِ زَيّافَةٍ إذا ما ارْتدى بالسَّرَابِ الأَكَمْ
كَتومِ الرُّغاءِ إذا هجّرَتْ وكانتْ بقيّةَ ذَوْدٍ كُتُمْ

وأمثال ذلك كثير فى شعره . وأين ذلك من شعره الذى عرضنا نماذج منه فى مواطن متفرقة فى هذا البحث ، وكله عذب اللفظ ، مشرق العبارة ، قريب التناول ، يسير الفهم ، موسيقىّ الجرْس حتى سُمّىَ صنّاجة العرب ، وحتى قالوا إنّ شعره كان ذا حِلْيَة يُخَيَّل إليك إذا أنشدته أنّ آخر ينشد معك !

فأنا أرى إذن أن الأعشى كان كغيره من الشعراء متباين الألفاظ ، يعسر ويغلظ ويصعب إذا ما تطلّب الموضوعُ منه ذلك ، ويرِقّ ويلين ويعذُب إذا ما انطلق فى موضوع غنائىّ عذب رقيق .

وأما ما أنكره الدكتور طه حسين من السهولة واللين فى شعر الأعشى ، فإنى أراه دليلاً قويًّا واضحًا على أثر القيان فى شعره . فإن هذه الحياة السهلة اليسيرة القائمة على الاستغراق فى اللهو ، والتمتّع به ، وإدمان الخمر ، ومُ اع القيان وعشقهن ، جعلت ألفاظه تتّسق فى يسرها ولينها مع يسر هذا اللهو ولينه ، وتتّسق فى حلاوة جرسها وعذوبة موسيقاها مع أنغام هؤلاء القيان وألحانهنّ فى الغناء والرقص .

ولكن هذا التعليل الذى يستقيم ، فيما أرى ، مع طبيعة الأعشى وحياته ، لا يعنى أن هذا الشعر الذى يحويه ديوانه كله له ، ولكنه يعنى أن التفاوت فى ألفاظ الشاعر ولغته لا يصحّ أن يُتّخَذ دليلاً على إنكار أن هذا الشعر المتفاوت هو لشاعر واحد . فقد بيّنّا أن مردّ هذا التفاوت إلى عاملين ، أولهما : اختلاف بيئات الشعراء ، وثانيهما : اختلاف الموضوعات التى يتناولونها . وقد وضّحتُ اختلاف الموضوع فى شعر الأعشى ، وأما اختلاف البيئة فنحن نعلم أن الأعشى كان متّصلاً ببيئات متعدّدة : فهو رجل بدوىّ يعيش قريبًا من قلب الجزيرة

العربية ، ويشارك فى حياة قبيلته مشاركةً واسعة تظهر فى قصائده . ثم هو كثير الرحلة : وفد على المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام ، وكثيرٍ من ممدوحيه فى اليمن وحضرموت ، حتى لقد وفد على كسرى ، ولم يكن مروره فى هذه البيئات عابراً سريعًا ، فقد كان يتَّصل بممدوحيه ويقيم عندهم يضيفونه ويَقْرُونه ، كما مرّ بنا عن أساقفة نجران حيث كان يستمع إلى غناء القيان ، وكان يتصل بألوان الترف واللهو فى تلك البلاد التى يفد عليها ، فقد اجتمع هو وحسَّان فى إحدى حانات الشام ، ولهما حديث طريف رواه أبو الفرج[1] .

ولا ريب أن عذوبة اللفظ ولينه يختلفان اختلافًا بعيداً عن ضعفه وابتذاله ، فقد ترقّ الألفاظ وتعذب ويبقى الأسلوب مع ذلك قويًّا ، والعبارة جزلة ، والشعر رصينًا بليغًا . وإنَّما ينبغى أن يكون احتكامنا فى نسبة الشعر إلى الشاعر مردّه إلى ظهور شخصية الشاعر الفنية فى هذا الشعر ، ووحدتها وانسجامها فى كل ما يقول ، على أن تكون هذه الشخصية الفنية شاملة عامةً تتَّسع للاختلافات الجزئية ، مما يستدعيه اختلاف الموضوع ، أو تغير الحالات النفسية عند الشاعر .

وفى ديوان الأعشى شعر لا يتَّسق مع شخصية الأعشى الفنية ، وقد نبَّه على بعضه الأقدمون ، ومثال ذلك أن ابن قتيبة[2] ذكر هذه الأبيات :

إنَّ مَحَلاً وإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ فى السَّفْرِ ما مضى مَهَلا
اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوفَاءِ وبالْـ ... ـحَمْدِ وَوَلَّى الملامةَ الرَّجُلا
والأَرْضُ حَمّالةٌ لِمَا حَمَّلَ ... اللهُ وما إنْ تَرُدّ ما فَعَلا
يوْماً تَرَاهَا كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ ... العَصْبِ وَيَوْماً أَدِيمُهَا نَغِلا

ثم قال : وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئًا يُستحسن . ومثال ذلك

---

(١) الأغانى ٤ : ١٦٧ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٤ .

أيضًا ما رواه أبو عبيدة[١]، قال : سمعت بشّاراً يقول ، وقد أنشد فى شعر الأعشى :

وأَنْكَرَتْنى وما كان الذى نَكِرَتْ منَ الحَوادِثِ إلاَّ الشَّيبَ والصَّلَعا

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى . فعجبتُ لذلك ، فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسًا عند يونس فقال : حدّثنى أبو عمرو ابن العلاء أنّه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى !

ولكن وجود هذا الشعر المنحول لا ينبغى له أن يجعلنا نعمّم الحكم ونطلقه ، وخاصّةً فيما يتعلّق بالألفاظ واللغة .

الأثر السادس — رواية شعره وحفظه :

ويشمل هذا الأثر ذلك التغيير الذى أحدثه الغناء فى ألفاظ الشعر وإبدال لفظة بأخرى ، وفى ترتيب أبيات الشعر بأن تنتخب القينة أبياتًا من أول القصيدة ، ثم من آخرها ، ثم من وسطها ؛ فيكون غناء الشعر مدعاة إلى شيوعه وذيوعه بهذه الألفاظ ، وبهذا الترتيب ، وبذلك يُرْوَى الشعر روايات مختلفة . وقد ذكرت فى الفصل الثانى من هذا الباب مثلاً من شعر الأعشى على كلّ من هذين الوجهين . ولست أقصد الآن أن أمضى فى تفصيل هذا الأثر من هذين الوجهين ، فقد كفانى منه هذه الإلمامة العابرة ، وإنّما أقصد إلى وجه ثالث يتّصل برواية الشعر وحفظه ، هو ما ذهب إليه كثيرون من الرّواة والنُّقّاد من أن الأعشى كان أسْيَرَ الناس شعراً ، وأعظمهم فيه حظًّا ، حتى كاد ينسى الناس أصحابه المذكورين معه[٢] . وسأورد أمثلة على سيرورة شعره ، ثم أبسط رأيى فى تعليلها .

أما أن شعر الأعشى كان سائراً ذائعًا لا يكاد يلقيه حتى تتناقله الألسنة فيُحفظ ويُرْوَى ويكون له أثر أىّ أثر ، فأمر واضح من ثلاث قصص تُرْوَى عنه :

---

(١) الأغانى — دار الكتب ٣ : ١٤٣ .

(٢) العمدة ١ : ١٧٢ .

أولاها — قصته مع المحلّق : فقد زعموا[١] أن الأعشى كان يوافى سوق عكاظ فى كل سنة ، وكان المحلّق الكلابى مثناثًا مُمْلِقًا ، فقالت له امرأته[٢] : يا أبا كلاب ، ما يمنعك من التعرّض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلاّ وأكسبه خيراً . . . فلحق به المحلّق ، فقدّم للأعشى ناقة وخمْراً وبُرْدَيْن ، فقال فيه الأعشى قصيدته التى يقول فيها :

لَعَمْرى لقد لاحتْ عُيُونٌ كثيرةٌ إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفَاعِ تَحَرَّقُ
تُشَبّ لِمَقْرُورَيْن يصْطَليانهَا وباتَ على النَّار النَّدَى والمُحلّقُ
رضِيعَىْ لِبَانٍ ثَدْىَ أُمّ تَحالَفَا بأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرّقُ

وقد ذكر أبو الفرج أن فى أول هذه القصيدة غناء ، وهو :

أَرِقْتُ وما هذا السّهَادُ المُؤَرِّقُ وما بِىَ من سُقْمٍ وما بِىَ مَعْشَقُ

قال : فسار الشعر وشاع فى العرب . فما أتت على المحلّق سنة حتى زوج أخواته الثلاث ، كل واحدة على مائة ناقة ، فأيسر وشَرُف .

الثانى : وأما القصة الثانية التى تُرْوَى عن سيرورة شعره فهى ما رواه أبو الفرج[٣] من أن امرأة جاءت إلى الأعشى فقالت : إن لى بنات قد كَسَدْنَ ، فشبِّب بواحدة منهن لعلّها أن تنفق . فشبّب بواحدة منهنّ . فما شعر الأعشى إلا بجَزُورٍ قد بُعث به إليه . فقال : ما هذا ؟ فقالوا : زُوِّجَتْ فلانة . فشبّب بالأخرى فأتاه مثل ذلك ، فسأل عنها فقيل : زُوِّجت . فما زال يشبِّب بواحدةٍ فواحدةٍ حتّى زُوّجْن جميعًا .

الثالثة : وثالثة هذه القصص هى منافرة علقمة بن عُلاثَة وعامر بن الطفيل ،

---

(١) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١١٣ — ١١٤ .

(٢) ويقال عمته ، ويقال أمه ، ويروى بناته وأخواته ، ولهذه القصة رواية أخرى ذكرها أبو الفرج (الأغانى ٩ : ١١٦) .

(٣) الأغانى — دار الكتب ٩ : ١١٨ .

فقد انحاز بعض الشعراء إلى كل منهما ، وتحرّج كثيرون من الحكم بينهما ، إلى أن احتكما إلى هَرِم بن سِنان ، فاحتال للأمر وسَوّى بين الرجُلين . وجاء الأعشى بعد صدور حكم هَرِم فانحاز إلى عامر ، وزعم أنهما حكّماه فى أمرهما ، وقال فى ذلك قصيدتين ، يقول فى أولاهما[1] :

عَلْقَمَ ما أَنْتَ إلى عامِرِ النَّاقِضِ الأَوتارَ والواترِ

ويقول فى الثانية[2] :

أَعَلْقَمَ قد حَكَّمْتَنى فَوَجَدتَنى بكُمْ عالماً على الحكومةِ غائصا
كِلا أَبويْكُمْ كان فَرْعًا دِعامةً ولكنَّهمْ زادُوا وأَصبحْتَ ناقصا

فسار شعره ، وذاع حُكْمُه فى الناس .

فقد كان شعر الأعشى إذن سريع الذيوع والانتشار بين الناس ، وكان أحيانًا يترتب على ذيوعه نتائج اجتماعية عامة ، أو فردية خاصة ، كما رأينا فى هذه القصص الثلاث . ولا شك أن هذه السيرورة ترجع إلى عدة عوامل ، منها ما يتصل بميزات هذا الشعر وخصائصه الفنية — وحتى هذه يرجع بعض الفضل فى وجودها إلى أثر القيان كما بيّنّا — ، ومنها ما يتّصل بالغناء والقيان : فقد بَيَّنْتُ مدى هذه العلاقة بين الأعشى والقيان ، وقرب اتّصاله بهنّ ، واستماعه إليهنّ ، وتمتّعه بغنائهنّ ، وكان القيان يغنّين — فيما يبدو — بشعر الأعشى ، ومن الطبيعى أن يصبح الشعر الذى تنتخبه القيان ويلحّنّه ويغنّينه فى المجالس الخاصّة والمحافل العامة ودور اللهو ، شعراً سائراً شائعًا منتشراً بين الناس ، ينشدونه ويترنّمون به ، ومن هنا كان للقيان وغنائهنّ فضل كبير فى سيرورة شعر الأعشى .

---

(١) ديوانه — قصيدة : ١٨ .
(٢) قصيدة : ١٩ .